الغريب

من كتاب "حول الفردية والأشكال الاجتماعية :
كتابات مختارة" ، تحرير وترجمة د. ليفين (1971)
جورج سيميل

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحررين

اتجهت الكثير من الأعمال المبكرة في جغرافية الثقافة ، كما يتضح من معظم المختارات في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، إلى التركيز على الأماكن الريفية وثقافات الفلاحين الشعبية كأمثلة على الصلة "العضوية" بين الناس وبيئتهم . في الواقع ، كشفت بعض هذه الجغرافيات المبكرة عن شكوك واضحة في أن الأماكن والمظاهر الطبيعية الصناعية والحضرية تُدمر الثقافة التقليدية في العصر الحديث . كانت ثقافة الجغرافيا الثقافية ثقافة راسخة الجذور في التربة . وقد زعم راتزل أنها أشبه بشجرة . وكان مولعًا باستعادة أصل المصطلح : الزراعة ، والاهتمام ، كما في الزراعة . في الواقع ، ذهب راتزل إلى أبعد من ذلك ، مشيرًا إلى أن المجتمعات الأكثر تقدمًا هي تلك التي رسخت جذورها عبر العصور . شبّه تطور الحضارة المتقدمة بـ"التخزين" - وهو نوع من التخزين التراكمي لأفضل ما أنتجته الأجيال السابقة . يتطلب هذا التخزين ، بطبيعة الحال ، ثباتًا في المكان .

ليس من المستغرب إذن ألا يكون لدى جغرافيي الثقافة الكثير ليقولوه عن الأشخاص غير الثابتين في مكانهم . من الواضح أن هؤلاء الأشخاص كانوا هامشيين بالنسبة لنوع المجتمعات "العضوية" التي اهتم بها جغرافيون مثل فيدال دي لا بلاش . أما المهجّرون والمتجولون ، فهم أشخاص تركوا هذه المجتمعات للانضمام إلى متجولين آخرين في المدن المتنامية . كانت الأماكن الحضرية والصناعية مليئة بالغرباء . وبالنسبة لعالم الاجتماع والفيلسوف الألماني جورج سيميل (1858-1918) ، كان الغريب رمزًا للحداثة والتحضر . بالطبع ، لم يخلق التصنيع غرباء ؛ لطالما كان للمجتمعات غرباؤها . إذا كان العديد من الجغرافيين ، وخاصة في أوروبا ، قد عدو الصلة العضوية بين الناس والأماكن أساسًا لعلمهم ، فإن الغريب قد زعزع هذه الصلة العضوية بشكل واضح . لذلك ، تطلّب الأمر عالم اجتماع لتقديم أطروحة رائدة حول موضوع - التنقل - الذي أصبح لاحقًا محوريًا في ممارسة جغرافية الثقافة . بالطبع ، اهتم الجغرافيون من نواحٍ عديدة بالتنقل ، ودرسوا انتشار الثقافات وما إلى ذلك . لكن سيميل ربما كان أول من نظر في التنقل في سياقٍ البنية الاجتماعية . كان سيميل مهتمًا بالدور الذي يلعبه الغرباء ضمن نظام اجتماعي وثقافي أوسع ، وبشكل أكثر تحديدًا ، الغريب كوسيلة لفهم انعدام الأمن الاجتماعي في الحداثة .

تتناول مقالة سيميل الموجزة قدرًا كبيرًا من المفاهيم في بضع صفحات فقط . يبدأ بعد الغريب شخصية تاريخية : التاجر الذي يستقر في مكان غريب (فالمرء لا يكون غريبًا إلا عندما يحاول الانضمام إلى المجتمع العضوي) ، ولكنه مضطر لكسب عيشه دون الوصول إلى الأرض . في النهاية ، يهتم سيميل بفكرة الغريب ، وهي فكرة تتعلق بفهمنا للموضوعية (وجهة نظر الغريب النزيه - أي الغريب) ، وفكرة نقل شيء قريب وبعيد في آنٍ واحد . يجادل سيميل بأن هذه الغرابة سمة عامة لجميع العلاقات ، حتى أكثرها حميمية . جميع العلاقات الإنسانية تنطوي على عنصر من الغرابة . ولكن على المستوى الاجتماعي ، يُجسّد الغريب سمة "الآخر" - شيء مختلف تمامًا عن الذات ، ولكنه يحتوي على عناصر مكبوتة أو خفية منها .

يُعرف جورج سيميل بأنه أحد أهم الشخصيات المبكرة في علم الاجتماع الألماني . على الرغم من كتاباته الغزيرة ، وارتباطاته بمنظرين اجتماعيين بارزين آخرين مثل ماكس فيبر وفرديناند تونيس ، وتألقه العام ، كان سيميل نفسه غريبًا بعض الشيء في الأكاديمية الألمانية . لم يُمنح لقب أستاذًا حتى عام 1914، أي قبل وفاته بأربع سنوات . نُشر كتاب "الغريب" لأول مرة عام ١٩٠٨. ولعل أشهر أعمال سيميل هي "فلسفة المال" (١٩٠٠) ومقال "المدينة الكبرى والحياة العقلية" (١٩٠٣) . ومن أهم مؤلفاته الأخرى "حول التمايز الاجتماعي" (١٨٩٠) و"علم الاجتماع : دراسات في أشكال المجتمع" (١٩٠٨) . ورغم أن أعماله لم تكن ذات أهمية كبيرة في تطوير جغرافية الثقافة ، إلا أن دراساته الرائدة للتحولات المكانية المرتبطة بالحداثة لاقت صدىً قويًا في الجغرافيا المعاصرة ، كما يتضح ، على سبيل المثال ، في كتاب ديفيد هارفي "حالة ما بعد الحداثة" (١٩٨٩) .

إذا كان التجوال ، حالة انفصال عن كل نقطة مُحددة في المكان ، اذن هو النقيض المفاهيمي للتعلق بأي نقطة ، فإن الشكل الاجتماعي لـ"الغريب" يُقدم ، إن جاز التعبير، توليفةً من هاتين الخاصيتين . (وهذا مؤشر آخر على أن العلاقات المكانية ليست فقط شروطًا مُحددة للعلاقات بين البشر، بل هي أيضًا رمزٌ لتلك العلاقات) . وهكذا ، لن يُنظر إلى الغريب هنا بالمعنى المُعتاد للمصطلح ، كالرحّال الذي يأتي اليوم ويذهب غدًا ، بل كالإنسان الذي يأتي اليوم ويبقى غدًا - الرحالة المُحتمل ، إن جاز التعبير، الذي ، على الرغم من أنه لم يذهب أبعد من ذلك ، لم يتجاوز تمامًا حرية الذهاب والإياب . إنه ثابت داخل دائرة مكانية معينة - أو ضمن مجموعة حدودها مماثلة للحدود المكانية - لكن موقعه داخلها يتأثر أساسًا بحقيقة أنه لا ينتمي إليها في البداية ، وأنه يُدخل إليها صفات ليست ، ولا يمكن أن تكون ، أصيلة فيها .

في حالة الغريب ، يُنمَّط اتحاد القرب والبعد المتضمن في كل علاقة إنسانية بطريقة يمكن صياغتها بإيجاز على النحو الاتي : **المسافة داخل هذه العلاقة تشير إلى أن القريب بعيد ، لكن غرابته تشير إلى أن البعيد قريب** . حالة كونه غريبًا هي بالطبع علاقة إيجابية تمامًا : إنها شكل محدد من أشكال التفاعل . سكان سيريوس ليسوا غرباء عنا تمامًا ، على الأقل ليسوا كذلك . بالمعنى السوسيولوجي للكلمة كما نفكر فيها . وبهذا المعنى ، فهم غير موجودين بالنسبة لنا إطلاقًا ؛ إنهم أبعد ما يكون عن القرب والبعد . الغريب عنصر من عناصر الجماعة نفسها ، لا يختلف عن الفقراء و"الأعداء الداخليين" المتنوعين - عنصر تتضمن عضويته داخل الجماعة كونه خارجها ومواجهتها في آنٍ واحد .

تهدف العبارات الاتية عن الغريب إلى توضيح كيفية عمل عوامل التنافر والبعد على خلق شكل من أشكال التواجد معًا ، شكل من أشكال الاتحاد القائم على التفاعل . في تاريخ النشاط الاقتصادي بأكمله ، يظهر الغريب في كل مكان كتاجر ، ويظهر التاجر كغريب . ما دام الإنتاج لتلبية احتياجات الفرد هو القاعدة العامة ، أو يتم تبادل المنتجات ضمن دائرة صغيرة نسبيًا ، فلا حاجة لوسيط داخل الجماعة . **لا يُطلب التاجر إلا للسلع المنتجة خارج الجماعة** . ما لم يكن هناك أشخاص يتجولون في بلاد أجنبية لشراء هذه الضروريات ، وفي هذه الحالة يكونون هم أنفسهم تجارًا "غرباء" في هذه المنطقة الأخرى ، فلا بد أن يكون التاجر غريبًا ؛ فلا توجد فرصة لأي شخص آخر لكسب عيشه منها .

ويبرز وضع الغريب هذا بشكل أوضح إذا استقر هناك بدلًا من مغادرة مكان نشاطه . وفي حالات لا حصر لها ، لا يكون هذا ممكنًا إلا إذا استطاع العيش بالتجارة كوسيط . أي مجموعة اقتصادية مغلقة تُقسّم فيها الأراضي والحرف اليدوية بطريقة تُلبي الاحتياجات المحلية ستظل تدعم سبل العيش . بالنسبة للتاجر ، فالتجارة وحدها تُمكّن من تركيبات غير محدودة ، ومن خلالها يتسع نطاق الذكاء باستمرار ويُطبّق في مجالات جديدة ، وهو أمرٌ أصعب بكثير على المُنتِج الأولي ، نظرًا لمحدودية حركته واعتماده على دائرة من الزبائن

لا يمكن توسيعها إلا ببطء شديد . **فالتجارة قادرة دائمًا على استيعاب عدد أكبر من البشر مقارنةً بالإنتاج الأولي** . لذا ، فهي النشاط الأنسب للغريب ، الذي يتطفل ، إن جاز التعبير، على مجموعة تشغل جميع المراكز الاقتصادية فيها بالفعل . والمثال الكلاسيكي على ذلك هو تاريخ اليهود الأوروبيين . فالغريب بطبيعته ليس مالكًا للأرض - الأرض ليس فقط بالمعنى المادي ، بل أيضًا مجازيًا كمادة حيوية ثابتة ، إن لم تكن في مكان ، فعلى الأقل في وضع مثالي ضمن البيئة الاجتماعية .

مع أن الغريب قد يكون جذابًا وذا معنى في مجالات العلاقات الشخصية الحميمة ، إلا أنه ما دام يُعد غريبًا ، فهو ليس "مالك أرض" في نظر الآخر . إن تقييده بالتجارة الوسيطة ، وغالبًا (كما لو كان مُسَمَّىً منها) بالتمويل المحض ، يُضفي على الغريب طابعًا خاصًا بالتنقل . إن ظهور هذا التنقل داخل مجموعة محدودة يُتيح ذلك التوليف بين القرب والبعد الذي يُشكل الوضع الرسمي للغريب . فالشخص المتنقل المحض يتواصل عرضًا مع كل عنصر، ولكنه لا يرتبط عضويًا ، من خلال روابط القرابة أو المكان أو المهنة الراسخة ، بأي عنصر.

وهناك تعبير آخر عن هذه المجموعة في موضوعية الغريب . لأنه غير مرتبط بجذورٍ بمكونات الجماعة الخاصة وتوجهاتها الحزبية ، فإنه يواجه كل ذلك بموقف "موضوعي" واضح ، موقف لا يعني مجرد الانعزال وعدم المشاركة ، بل هو بنية مميزة تتألف من البعد والقرب ، واللامبالاة والانخراط . أشير إلى تحليلي للمواقع المهيمنة التي اكتسبها الغرباء ، في مناقشة التبعية والهيمنة ، والتي تتجسد في ممارسة بعض المدن الإيطالية لتجنيد قضاتها من الخارج ، لأنه لم يكن أي مواطن بمنأى عن التورط في المصالح العائلية والانقسامات . وترتبط بخاصية الموضوعية ظاهرة توجد بشكل رئيسي ، وإن لم يكن حصريًا ، لدى الغريب الذي ينتقل . يعني هذا ، أنه غالبًا ما يتلقى أكثر الاكتشافات والأسرار إثارة للدهشة ، والتي تُذكر أحيانًا باعترافات المُعترف ، حول أمور تُحفظ بعناية عن كل من يُقربه .

الموضوعية ليست بأي حال من الأحوال عدم مشاركة ، وهي حالة تقع خارج نطاق التمييز بين التوجهات الذاتية والموضوعية . إنها بالأحرى نوع إيجابي ومحدد من المشاركة ، تمامًا كما أن موضوعية الملاحظة النظرية لا تعني بوضوح أن العقل مجرد لوحة فارغة سلبية تُنقش عليها الأشياء صفاتها ، بل تعني النشاط الكامل لعقل يعمل وفقًا لقوانينه الخاصة ، في ظل ظروف تستبعد التشوهات العرضية والتأكيدات التي من شأنها أن تُنتج اختلافاتها الفردية والذاتية صورًا مختلفة تمامًا للموضوع نفسه .

يمكن تعريف الموضوعية أيضًا بأنها الحرية . **الإنسان الموضوعي ليس مقيدًا بروابط قد تؤثر على إدراكه وفهمه وتقييمه للبيانات** . هذه الحرية ، التي تسمح للغريب باختبار علاقاته الوثيقة والتعامل معها كما لو كانت من منظور طائر، تنطوي على احتمالات خطيرة كثيرة . منذ العصور الأولى ، في مختلف أنواع الانتفاضات ، ادعى الطرف المُعتدى عليه وجود تحريض من الخارج ، من مبعوثين ومُحرضين أجانب . وبقدر ما حدث هذا ، فإنه يُمثل مُبالغة في دور الغريب المُحدد : فهو الإنسان الأكثر حرية ، عمليًا ونظريًا ؛ **فهو يُحلل الظروف بتحيز أقل ؛ ويُقيّمها وفقًا لمعايير أكثر عمومية وموضوعية** ؛ ولا تقتصر أفعاله على العرف أو التقوى أو السوابق .

وأخيرًا ، فإن نسبة القرب والبعد التي تُضفي على الغريب طابع الموضوعية تجد تعبيرًا عمليًا أيضًا في الطبيعة الأكثر تجريدًا للعلاقة معه . أي أن المرء لا يشترك مع الغريب إلا في صفات عامة معينة ، بينما تقوم العلاقة مع الأشخاص المرتبطين عضويًا على تشابه السمات المحددة التي تميزهم عن السمات العامة فحسب . في الواقع ، يمكن تحليل جميع العلاقات الشخصية ، أيًا كانت ، وفقًا لهذا المخطط . فهي لا تُحدد فقط بوجود سمات مشتركة معينة يشترك فيها الأفراد ، بالإضافة إلى اختلافاتهم الفردية ، والتي إما تؤثر على العلاقة أو تبقى خارجها . بل... يعتمد تأثير هذا التشابه على العلاقة أساسًا على ما إذا كان موجودًا فقط بين

المشاركين أنفسهم ، وبالتالي ، على الرغم من كونه عامًا داخل العلاقة ، إلا أنه خاص وغير قابل للمقارنة فيما يتعلق بجميع من هم خارجها ، أو ما إذا كان المشاركون يشعرون بأن ما يجمعهم مشترك فقط لأنه مشترك بين مجموعة أو نوع أو البشرية بشكل عام .

في الحالة الأخيرة ، يتضاءل تأثير السمات المشتركة بما يتناسب مع حجم المجموعة التي تحمل الخصائص نفسها . يوفر التشابه أساسًا لتوحيد الأعضاء ، بالتأكيد ؛ لكنه لا يوجه هؤلاء الأشخاص تحديدًا إلى بعضهم البعض . يمكن للتشابه المشترك على نطاق واسع أن يوحد بسهولة كل شخص مع كل شخص آخر ممكن . من الواضح أيضًا أن هذه طريقة تشمل بها العلاقة كلاً من القرب والبعد في وقت واحد . بقدر ما تتخذ أوجه التشابه طابعًا عالميًا ، فإن دفء الصلة القائمة عليها سيكتسب عنصرًا من البرودة ، وإحساسًا بالطبيعة العرضية لهذه العلاقة تحديدًا - فقد فقدت القوى الرابطة طابعها المركزي الخاص .

فيما يتعلق بالغريب ، يبدو لي أن هذه المجموعة تفترض تفوقًا استثنائيًا من حيث المبدأ على العناصر الفردية الخاصة بالعلاقة المعنية . الغريب قريب منا بقدر ما نشعر بينه وبين أنفسنا بتشابهات في الجنسية أو الوضع الاجتماعي ، أو المهنة أو الطبيعة البشرية العامة . وهو بعيد عنا بقدر ما تمتد هذه التشابهات إلى ما هو أبعد منه وبيننا ، وتربطنا فقط لأنها تربط عددًا كبيرًا من الناس . يتسلل أثر من الغرابة بهذا المعنى بسهولة حتى إلى أكثر العلاقات حميمية . في مرحلة الشغف الأول ، ترفض العلاقات الإيروتيكية بشدة أي فكرة للتعميم . لم يوجد حب كهذا من قبل ؛ لا شيء يُقارن بالشخص الذي نحبه أو بمشاعرنا تجاهه . عادةً ما ينشأ شعورٌ بالغربة (سواءٌ كان السبب أم النتيجة ، يصعب تحديدهما) في اللحظة التي يختفي فيها هذا الشعور بالتفرد من العلاقة . إن التشكيك في القيمة الجوهرية للعلاقة وقيمتها بالنسبة لنا ينبع من فكرة أن المرء في هذه العلاقة ، في نهاية المطاف ، لا يُحقق سوى قدرٍ بشري عام ، وأنه قد مرّ بتجربةٍ تكررت ألف مرة ، وأنه لو لم يلتقِ بهذا الشخص تحديدًا صدفةً ، لكان شخص آخر قد اكتسب المعنى نفسه بالنسبة لنا .

ربما لا يغيب شيء من هذا الشعور في أي علاقة ، مهما كانت وثيقة ، لأن ما هو مشترك بين شخصين ربما لا يكون مشتركًا بينهما فقط ، بل ينتمي إلى مفهوم عام يشمل الكثير غير ذلك ، احتمالات عديدة للتشابه . ومهما قلّت هذه الاحتمالات ، ومهما نسيناها ، فإنها تتراكم هنا وهناك كالظلال بين البشر، كضباب يفلت من كل تسمية ، ولا بد أن يتجمد في جسد صلب حتى يُسمى غيرة . لعل هذا في كثير من الحالات غرابة أعم ، أو على الأقل أكثر صعوبة في التغلب عليها ، من تلك الناجمة عن الاختلافات والغموض . إنها غرابة ناجمة عن كون التشابه والانسجام والتقارب مصحوبًا بشعور بأنها ليست في الواقع خاصية حصرية لهذه العلاقة الخاصة ، بل تنبع من علاقة أعم - علاقة تشملنا نحن وعددًا غير محدد من الآخرين ، وبالتالي تمنع تلك العلاقة التي خُبرت وحدها من أن تكون لها ضرورة داخلية وحصرية .

من ناحية أخرى ، هناك نوع من "الغرابة" يُستبعد فيه هذا الارتباط ذاته القائم على صفة عامة تشمل الأطراف . علاقة الإغريق بالبرابرة مثال نموذجي ؛ وكذلك جميع الحالات التي تُحرم فيها السمات العامة التي يعدها المرء غريبة ومجردة على الآخر . لكن هنا لم يعد لتعبير "الغريب" أي معنى إيجابي . فالعلاقة معه لا علاقة لها ؛ فهو ليس ما كنا نناقشه هنا : الغريب كعضو في الجماعة نفسها . وهكذا ، يكون الغريب قريبًا وبعيدًا في آنٍ واحد ، كما هو الحال في أي علاقة قائمة على مجرد أوجه تشابه بشرية عالمية . ومع ذلك ، ينشأ بين هذين العاملين ، القرب والبعد ، توترٌ غريب ، لأن الوعي بامتلاك ما هو عامٌّ مُطلقٌ فقط يُؤدي بالضبط إلى التركيز بشكلٍ خاص على ما هو غير شائع . بالنسبة لغريب الريف أو المدينة أو العرق وما إلى ذلك ، فإن ما يُشدد عليه مرةً أخرى ليس شيئًا فرديًا ، بل الأصل الغريب ، وهي صفةٌ يشترك فيها ، أو يُمكن أن يشترك فيها ، مع العديد من الغرباء الآخرين . لهذا السبب ، لا يُنظر إلى الغرباء كأفرادٍ في الواقع ، بل كغرباء من نوعٌ مُعين . فبعدهم لا يقل عموميةً عن قربهم .

يظهر هذا الشكل ، على سبيل المثال ، في حالةٍ خاصةٍ كالضريبة المفروضة على اليهود في فرانكفورت وأماكن أخرى خلال العصور الوسطى . فبينما كانت الضريبة التي يدفعها المواطنون المسيحيون تختلف باختلاف ثروتهم في أي وقت ، كانت الضريبة تُفرض على كل يهودي دفعةً واحدةً وإلى الأبد . وقد حُدد هذا المبلغ لأن اليهودي كان يتمتع بمكانته الاجتماعية كيهودي ، وليس كحاملٍ لمحتوياتٍ موضوعيةٍ مُعينة . فيما يتعلق بالضرائب ، كان يُنظر إلى كل مواطنٍ آخر على أنه يمتلك قدرًا مُعينًا من الثروة ، ويمكن أن تتبع ضريبته تقلبات ثروته . لكن اليهودي كدافع ضرائب كان يهوديًا في المقام الأول ، وبالتالي كان وضعه المالي يحتوي على عنصرٍ ثابت . يظهر هذا بوضوح ، بطبيعة الحال ، بمجرد أن تُنسى الظروف المختلفة لليهود كأفراد ، وإن كان هذا الاعتبار محدودًا بتقييمات ثابتة ، ويدفع جميع الغرباء ضريبة الرأس نفسها تمامًا

ورغم إلحاقه بها بشكل غير عضوي ، يظل الغريب عضوًا عضويًا في الجماعة . وتتضمن حياته الموحدة التكييف المحدد لهذا العنصر . لكننا لا نعرف كيف نحدد الوحدة المميزة لهذا الوضع إلا بالقول إنه يتكون من قدر معين من القرب والبعد . ومع أن هاتين الصفتين موجودتان إلى حد ما في جميع العلاقات ، إلا أن تناسبًا خاصًا وتوترًا متبادلًا بينهما يُنتجان الشكل المحدد للعلاقة مع "الغريب" .